لزومية الآلام وسرقة الملكوت[1]

⊙✠⊙

الآلام واسطة لنيل الكمال المسيحي:

الآلام هي سِمَة أساسية لتكميل الإنسان المسيحي والمسيحية عمومًا، فلا يمكن أن يكون إنسانٌ مسيحيًّا كاملًا أو قد نال الكمال المسيحي إلَّا بواسطة الآلام: «بِضِيقَاتٍ كَثِيرَةٍ يَنْبَغِي أَنْ نَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ» (أع ١٤: ٢٢). وفي الحقيقة، إنه من الدقَّة أن تُترجم كلمة "ينبغي" بـ"**يتحتَّم**" أي بتأكيدٍ مُلزِم، أن ندخل ملكوت الله.

وهذا بالنص ما قاله المسيح عن نفسه: «كَانَ يَنْبَغِي (يتحتَّم، لابدَّ) أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ بِهذَا وَيَدْخُلُ إِلَى مَجْدِهِ » (لو ٢٤: ٢٦).

فالآلام لابد منها لتكميل المسيحي بالخلاص في هذا الدهر وفي الدهر الآتي.

فهنا في هذا الدهر يتكمَّل الإنسان بالخلاص يومًا فيومًا بواسطة الآلام، أمَّا تتميم وتكميل الخلاص النهائي والكامل، فهو هناك في السماء، حيث تنتهي الآلام والأحزان ويمسح الله كل دمعة.

منهج تكميل الخلاص بالآلام:

منهج الخلاص المسيحي، حسب الإنجيل والرسل والآباء والمسيح نفسه رئيس إيماننا ومُكمِّله، لابد ويتحتَّم أن يتكمَّل هنا بالآلام.

للأسف، لقد سقط في جيلنا هذا منهج تكميل الخلاص بالآلام، وصار الخلاص مجرد نظرية أو تأمل عقلي يُفرِّح العقل ويُلهب العواطف (هلِّلويا، خلصت!)؛ بل صار الإنسان يتحايل في فصل الخلاص عن أيِّ مُعاناةٍ أو احتمالٍ للألم. وهذا، للأسف، ما يقع فيه الإنسان العادي، بل وحتى آباء الاعتراف والمُرشدون الروحيُّون.

---

(١) مقتطفات من حديثٍ خاص للاب متى المسكين مع بعض الآباء في الساحل الشمالي، الأحد ١٩٩١/٧/٢٨م.

فمثلًا يذهب واحدٌ إلى أب الاعتراف ويشتكي له أنه يُعاني من ضيقاتٍ كثيرة، وقد أصابته خسارة مادية أو ظلم وهُضِم حقُّه؛ وبدلًا من أن يوجِّهه أب الاعتراف التوجيه الصحيح، بأنَّ كلَّ هذه الآلام هي ضرورية لتكميل خلاصه، وهي ضمن خطة وتدبير خلاصه، وبدلًا من أن يقوده للشركة في صليب المسيح وآلامه ثم في مجده؛ نجد أب الاعتراف يُخفِّف عنه ضيقاته ويُهوِّنها عليه، بأنه سوف يُريحه منها، أو يأخذ له حقَّه الذي ظُلم فيه، أو يردُّ له كرامته التي امتُهنت. وكأنَّ أب الاعتراف لكي يصير في نظر الذين يعترفون عليه أبًا بمعنى الكلمة، ينبغي أن يُدافع عن أولاده ويردَّ لهم كرامتهم المفقودة وحقوقهم المُغتَصَبة!

هذا مفهومٌ خاطئ لمنهج الخلاص، به يُعوِّق أب الاعتراف أولاده عن تقبُّل احتمال الآلام؛ وبالتالي يُعوِّقهم عن الكمال المسيحي وتكميل الخلاص. فلابد من الآلام لتكميل الخلاص ونيل الكمال المسيحي والحياة المسيحية الكاملة.

ضرورة الآلام في حياة المسيحي:

مرةً كنتُ أتكلَّم عن ضرورة الآلام في حياة المسيحي، وأنه لابد للإنسان أن يجوز الآلام حتى يصير مسيحيًّا كاملًا، فقال لي أحدهم بضيقٍ: وهل لابد لنا من الآلام؟ قلتُ له: لابد. فنظرتُ إليه فوجدته مال برأسه، فظننتُ أنه كان يُفكِّر في الأمر، إلَّا أنني لاحظتُ أنه نام من كثرة الحزن!

وكان معه في ذلك الوقت أخٌ آخر، هذا لمَّا رأى أن زميله قد نام من كثرة الحزن والتأثُّر من كلامي على ضرورة الآلام في حياة الإنسان المسيحي، قال مُفتخرًا: إني مُتعجِّبٌ من هذا، كيف تقول بضرورة الآلام في حياتنا وأنا شخصيًّا لم أُعانِ قط من أيِّ ألمٍ، وحياتي تخلو تمامًا من الآلام، فأنا سعيدٌ مع أسرتي، وناجحٌ في العمل جدًّا، ولي علاقات اجتماعية طيبة، وكل شيء على ما يرام! فقلتُ له: لا تتحدَّى المسيح، لابد من الآلام والصليب. وإذا كانت حياتك الآن خالية من الآلام كما تدَّعي، فإما أنك تتهرَّب من الآلام بكل وسيلة، أو أنك تغش نفسك وترشي الآخرين لكي لا تأتي عليك الآلام.

وفي اليوم الثاني، جاءني هذا الأخ، وألحَّ جدًّا في مقابلتي لأمرٍ هام، ولمَّا قابلته أقرَّ

معترفًا، وقال لي: "بالفعل، يا أبونا، كلامك صحيح جدًا، وأنا أكبر غشَّاش. كنتُ أغش نفسي أنني سعيدٌ خالٍ من الآلام. وكنتُ أرشي الآخرين بالهدايا والمال حتى لا تأتي عليَّ الآلام وأعيش بعيدًا عنها. وأنا من اليوم سوف أكفُّ عن ذلك وأتقبَّل الآلام وأحمل الصليب مهما كان الأمر". وبالفعل هذا الأخ المُبارك لمَّا بدأ يستفيق لمعنى الآلام كضرورة لازمة للخلاص، سعى بنفسه نحو الآلام، ومرَّ بآلامٍ كثيرة.

نعم، إنَّ الآلام ضرورية لتكليل الإنسان المسيحي وتكميل خلاصه. فإن تقبَّلها يُرفع في الحال ثلاثة أرباع تأثيرها الصعب. أمَّا إن كان يسعى نحو الألم ويفرح به، فسيُرفع ويُفقد تمامًا تأثيره عليه، ويسود هو على الألم.

تجاوُز الألم الاضطراري بالألم الاختياري:

هناك معادلة سرِّية عند الله يمكن بواسطتها أن يرفع الله الألم عن الإنسان، وهي: تجاوُز الألم بالآلام، أي تجاوُز الألم الاضطراري بالألم الاختياري. بمعنى أن تَقبل الألم طواعية بإرادتك، وتجري وراءه، فتتجاوز الألم الذي يسمح به الله بغرض اتضاعك. فالله يُرسل إليك الآلام لتتضع، فإن تقبَّلتَ الآلام بنفسك من الآخرين، وجريتَ وراءها باتضاع كفَّت عنك الآلام التي بسماح من الله. فمثلًا إن أتت عليك إهانة أو ظلم وتقبَّلته وسُرِرتَ به باتضاعٍ وانسحاق كأنك مستحقٌّ لأكثر منه، فللحال يرفع الله عنك الألم الاضطراري الذي أعدَّه لك لاتضاعك.

هذه هي صناعة القديسين: تجاوُز الألم الاضطراري بالألم الإرادي الذي كانوا يسعون إليه ويجرون وراءه ويشتهونه. القديسون لم يصيروا قديسين إلَّا حينما تجاوزوا آدميتهم وكرامتهم، وماذا يقول الناس عنهم. فجروا وراء المهانة والمذلَّة والمحقرة بإرادتهم، فأحسُّوا وسطها بالفعل بالراحة والسعادة، التي هي أسمى من راحة وسعادة عرش المملكة، وبهذا ارتفعوا وسموا فوق آلام الدهر كله.

أمثلة:

+ الهبيلة المذكورة في بستان الرهبان، وكيف كانت تقبل المهانة والمحقرة من الراهبات، وتُسرُّ بها، حتى أنها ارتفعت وسَمَت فوق كل الآلام، ولم تَدِنْ قط من آلَمَها أو

أهانها من الراهبات؛ بل وصفتهن بصفاتٍ فاضلة. وبهذا انتصرت على الآلام وصارت أسمى مرتبة في الروحيات من كل الراهبات جميعًا (بستان الرهبان ١٢٢٥).

+ الراهب الذي ترك ديره لأنه اعتبر مَنْ فيه آباء قديسين، وذهب يبحث عن ديرٍ يُشتَم فيه ويُهان ليسرق الملكوت (بستان الرهبان ١٠٣١).

فن سرقة الملكوت:

هناك فن يُدعَى فن سرقة ملكوت السموات، به سرق القديسون ملكوت الله.

والأمثلة في حياتنا كثيرة بلا حصر:

+ شخصٌ يتهمك زورًا بأنك كذابٌ، فتصمت ولا تُدافع عن نفسك، أو تُصحِّح الاتهام، بل ربما تقول: أنت على حقٍّ، فأنا لستُ كذَّابًا فقط، بل تزيد على ذلك صفات رديئة... هكذا فعل أنبا أغاثون حينما اتهمه البعض بصفاتٍ باطلة، فلم يُدافع عن نفسه، بل أيَّد وقَبِل بمسرَّة كل ما قيل عنه من أكاذيب.

ولكن إن دافعتَ عن نفسك وعن كرامتك بانفعالٍ وغضب؛ فبدل من أن تسرق الملكوت باتضاعك، يسرق الشيطان منك الملكوت بدفاعك وتبريرك لنفسك.

+ آخر يهينك ويشتمك، فتتصرَّف وكأنك لم تنتبه ولم تسمع شيئًا، بل تُقدِّم له خدمة، فيخجل ويحتار جدًّا من اتضاعك، فتربح نفسه ونفسك معًا، وبهذه الطريقة تسرق الملكوت.

فبمثل هذه المواقف البسيطة، نسرق الملكوت، ونربح المُسيئين، ونقتني أنفسنا، هذا فن أدركه القديسون ومارسوه. ونحن ينبغي أن نتبع آثارهم ونُمارس فنهم في سرقة الملكوت.

+ موقفٌ آخر: إن اشتهى أحدٌ شيئًا ما يخصُّك وتركته له عن محبةٍ وإلحاح، فأنت تسرق بواسطته الملكوت.

+ مثلما فعل أحد الشيوخ، الذي عندما أحسَّ أن هناك مَنْ يريد أن يسرق رداءه الغالي، قام عن الرداء الذي لم يُسدِّد حتى ثمنه، وسمح للسارق أن يسرقه ويمضي، وبهذه السرقة للرداء سرق هذا الراهب الملكوت (بستان الرهبان ١١٨٤).

+ وقصة أخرى عن شيخ، كان يسرق راهبٌ عمل يديه، والشيخ يَكِدُّ ويتعب أكثر ليحصل على طعامه الضروري دون أن يوبِّخ ذلك الراهب السارق طول حياته. وعند وفاة الشيخ، قال للراهب: اقترب مني يا ابني. فلما اقترب منه قبَّل يديه وقال له: بهاتين اليدين اللتين كانتا تسرقاني، أنا أسرق ملكوت السموات. فندم الراهب السارق وتاب. وسرق الشيخ بالفعل ملكوت السموات باحتماله وطول أناته وصبره (بستان الرهبان ٧١٠).

فسرقة الملكوت سهلة لِمَن يستغل المواقف التي فيها تذبح ذاتك بقبول الإهانة والمذلَّة من الآخرين، وتذهب إلى المسيح حاملًا ذاتك المذبوحة بالاتضاع على كفِّك وتُقدِّمها إلى الرب، فيقول لك: "الذبيحة لله روح منسحق، تعال يا مُبارك أبي، رِثْ الملكوت المُعدَّ لك".

المتواضعون وحدهم هم سُرَّاق الملكوت:

السماء هي للمتواضعين المُنسحقين، الذين أنكروا ذواتهم بإرادتهم وأحبُّوا المهانة والمذلَّة وسعوا إليها برغبتهم، هذه هي صناعة وفن سرقة الملكوت.

هل تعتقدون أن الخدمات الكثيرة والأنشطة الكنسيَّة المتعدِّدة وقراءة مكتبات دينية كاملة توصِّل وحدها للملكوت؟ لا، لا يمكن أن يوصِّلك كل هذا للملكوت، إن لم تَخْتَر أنت المذلَّة والإهانة لذاتك، وتجري وراء المحقرة والأعمال الحقيرة.

وكما قلتُ سابقًا: سرقة الملكوت فنٌّ لا يعرفه إلَّا المتواضعون المُنكرون لذواتهم.

فكل مَنْ يحمل أخطاء الآخرين على نفسه، وينسبها إلى ذاته، بل ويتقبَّل المهانة والتوبيخ عن الذين اخطأوا؛ فقد استطاع أن يقتني فن سرقة الملكوت.

لقد قرأتُ ورأيتُ في حياتي نماذجَ رائعة من الآباء المُتضعين الذين اقتنوا بأعمالهم فن سرقة الملكوت، وصارت تنطبق عليهم الآية: «مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ (يُسرق)، وَالْغَاصِبُونَ (المتواضعون) يَخْتَطِفُونَهُ» (مت ١١: ١٢).